"الفوفزم" في الأدب والفن

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

في الادب والفن حركات تقدمية تتوارث احداها الاخرى او تتناوب معها في اجتذاب الذوق العام . ومن اقدم هذه الحركات التي أخذت تظهر في اواخر القرن الماضي « الفوفزم » Fauvism او « الأبوديّة » التي لا يزال حياً من أقطابها الفنّان الفرنسي العالمي الشهرة هنري ماتيس Matisse فما هي هذه الحركة وما علة تسميتها هذه ؟ إنّ « الفوف » هو الحيوان الآبد أو المتوحش ، « فالفوفيّة » او « الفوفزم » أو « الأبوديّة » تعني الجموح عن المألوف جموح الحيوان الآبد ، دون أن يكون في هذا الجموح ما ينافي الجمال بل لا ريب أنّ له جماله الخاص . إنّ هذه الحركة تدين بخلقها الى نزعة التحرّر من الأشكال والأوضاع المألوفة ، كالشعر الذي يريد أن يُثبت كيانه بذاته لا بتبعيّته للنّظم أو للموسيقى التقليدية . وقد كان فجرها الأول ثمرة عبقرية ماتيس وعلى الأخص في سنة ١٩٠٠ م . كما نشهد في لوحته « الرّيف في تولوز » إذ نجد الأصباغ تتحرّر من الأشكال الضيقة وتخلق بانسجامها الطلق المشهد الجميل المتحرّر الذي خفق له قلب الرّسام الفنان . كان ماتيس منذ نصف قرن أو يزيد رسول انتصار الألوان والماهد الأول للفوفزم . وكما أنّ كثيرين من المتأدّبين والنّقاد لا يفهمون من الشعر الا مزيجاً من الاستعارات البسيطة أو المركبة والأخيلة الجامحة التي توقعها الموسيقى ويحتقرون ما عداها ، مهما عظمت طاقتها الفنيّة وجلّت أصالتها الابداعية ، نرى نظراء لهم لا يفهمون مقابل هذه النزعة في التصوير ، بل لا يزال ثمة كثيرون لا يعدو فهمهم للفن التصويري المحاكاة الكلاسيكية للطبيعة في مثل أمانة الكاميرا ولا يقدّرون بتاتاً التحرّر الابداعي لا في الموضوع ولا في الأسلوب ، وهؤلاء يفوتهم ما في الفوفزم وسواها من الحركات الفنية الحديثة من ابتكار وجمال .

كان « ماتيس الفتى » مريضاً وقد أجريت عليه عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدّودية ، فأشار عليه صديق بان يجرّب حظه بالرسم ، وأهدت اليه والدته صندوقاً من الأصباغ والريشات ، وهي هدية لم يرض عنها والده ، فكان ذلك بداية تعلقه بالفن ، كما كان عوناً فعّالاً على تعافيه ، فقد أشعره على حدّ تعبيره بجنة من الحرية ، وهكذا كان أصل هواية ماتيس التي صارت مهنة له توقه الى الحرية ، وهذا التوق ما برح ملازماً له حتى اليوم . وهو يعد الفن نعمة وراحة ذهنية ، فلا عجب اذا كان قد صاحبه الى الشفاء ، ولا عجب اذا بقي في سنّه المتقدمة مجدداً لعافيته وصديقاً وأنيساً وفياً

إن النور الأبيض هو تجمع الألوان التي يتألف منها قوس قزح ، والألوان هي عناصر هذا النور متحررة ، وعماد « الفوفزم » هي هذه الالوان المتحررة المترفعة عن التقيد بشكل من الاشكال ، ولرسولها الاول ماتيس من الولوع بها بل والتصوف فيها خاصية فريدة جعلته يبلغ منزلة الاتقان ، مذ كان حبّ الالوان يجري في دمه بالفطرة كما يجري الشعر في دم الشاعر المطبوع روحاً له ، لا عاملاً ثانوياً يزجيه . وهذا يفسر أن « الفوفزم » لا يخلقها ولا يخدمها إلا التفاني فيها من تشرب حاسة اللون تشرباً تاماً حتى لقد اصبحت روحه الفنية المستحوذة على جميع مشاعره . ومع ذلك فالفوفزم ليست في تعبيرها خادمة الانفعال الغريزي فقط ، فهذه آثار معلمها الأول ماتيس تدل على توازن ما بين الانفعال الغريزي وما بين التفكير والتأمل وليست مجرد ومضات طائشة من الالهام .

لا تقيد « الفوفزم » الفنان بمألوف الالوان ، بل على العكس تبالغ في حماية انفعالاته ، فاذا به يصبغ السماء بالخضرة والاشجار بالصفرة الليمونية والوجوه بألوان غير مألوفة وقس على ذلك حتى ليخرج لنا في النهاية لوحة عجيبة في محتوياتها عجيبة في هزّها مشاعرنا بسمفونية الالوان المبتكرة وظلالها المنوعة التي تجابهنا وتصدمنا فتترك أثراً عميقاً في نفوسنا ، لانها بالرغم من عدم حفاوتها بقواعد الرسم المعتاد أو بالالوان المعهودة تعطينا في مجموعها صورة بالغة التأثير تغني فيها قوة الالوان عن دقة الاشكال وتترك أثراً عميقاً في نفوسنا ، ومن هذا القبيل لوحة « امرأة تطالع » من رسم هنري ماتيس سنة ١٩٠٦ م . ولوحة « الرقص الريفي »

في فاليز من رسم راوول دوفي Raoul Dufy سنة ١٩٠٦ م .

فما هو المقابل لذلك في الادب ؟ لنأخذ هذا المثل من الشعر المعبّر عن « الفوفزم » كأنه لوحة فنيّة :

رنّحتني كصدمة الرّاح في النفس وهزّت مشاعري المشدوهه
مُرعشات الاصباغ مثّلت الرّيف مزيجاً من الرؤى الفرحانه
لم تكيّف في الرّسم ، بل طغت الاصباغ فيها على حدود المكان
وتخلّت من التقاليد إذ حلّت محلّ الاشكال بالايحاء
هي خلقٌ لعالم مثل ما تهوى وإن كان موحياً ما ألفنا
وغريب الالوان غيرُ عجيبٍ ، فمن اللون ما تقمّص غيره !

ففي هذه الأبيات تفاجئنا الدهشة والرعشة الفنية وتمرّ بها سريعاً أمامنا الصورة الجريئة من غرابة الألوان واستقلالها عن الرسم المقيد ، ثم قدرتها مع ذلك على الايحاء لنا في مجموعها بمعنى الريف ، فهي خلق جديد يوحي في الوقت ذاته بما ألفنا ، ويكسب الالوان انتصاراً على الاشكال .

وهذه المقطوعة الشعرية هي من النظم المرسل الذي يقابل حرية « الفوفزم » وقيمة هذا الشعر ذاتية مثل نظيره من الفن التصويري ، فكما أنّ الاخير لا يدين في قوّته للرسم المألوف ولقيود الاشكال بل يعتمد على الالوان وظلالها وكيفية انسجامها فقط ، نجد ذلك الشعر لا يستمدّ قوّته من نظم او موسيقى معتادة أو تفنن بديعي او ما اليه ، وانما يستمدها من طاقته الاصيلة المتميزة . ولهذه الاعتبارات كانت ولا تزال « الفوفزم » حركة قوية خلابة في الادب والفن ، وقد مضى عليها نصف قرن او يزيد منفردة مندمجة دواليك وفاقاً لتبدّل الاذواق بين جيل وجيل كما هي سنّة الله في خلقه . وعلى هذا فهي جديرة بالتفات أبناء العربية اليها ، فقد طال التفاتهم الى الزخارف والى ما في حكمها ، وحجّر الجمود أو التقليد اذواقَ كثيرين من ادبائهم ونقادهم حتى باتوا لا يزنون الشعر الا بتفاعيل النظم المتبّع منذ قرون أو بمقدار محتوياته من تشابيه واستعارات وميوعة غنائية . وهكذا صارت الفُحولة والاصالة والابتداع عيباً في نظرهم . وليس نقاد الموسيقى بأحسن حالاً من هؤلاء ، بله الفنون الاخرى ما عدا التصوير اليدوي ، فانه على الرغم من روح المحافظة آخذ في التقدّم الجريء في بعض البيئات التي لا ريب تفهم قيمة « الفوفزم » وقد يُعنى عدد من رجالها عناية عظيمة بها فيساعدون على تحرير الفن وخدمة الثقافة الرفيعة .

نيويورك — **احمد زكي ابو شادي**

الحيّ اللاتيني

قصة الشباب العربي القلق الذي يبحث عن نفسه

تأليف الدكتور

سهيل ادريس

الطبعة الثانية

صدرت حديثاً

دار العلم للملايين

كنوز القصص الإنساني العالمي

سلسلة جديدة تعرّف القارئ العربي إلى شوامخ الآثار القصصية العالمية ذات النزعة الإنسانية

اختارها ونقلها إلى العربية

منير البعلبكي

صدر منها :

		ق. ل.
١ — كوخ العم توم (الطبعة الثانية)	لهرييت ستاو	٢٠٠
٢ — اسرة آرتامونوف (الاول)	لمكسيم غوركي	٣٠٠
٣ — « « (الثاني)	« «	٢٥٠
٤ — المواطن توم بين (الاول)	لهاوارد فاست	١٥٠
٥ — « « « (الثاني)	« «	٢٠٠
٦ — ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة	لمكسيم غوركي	١٠٠
٧ — حكايات من ايطالية	« «	١٠٠
٨ — شارع السردين المعلب	لجون شتاينبيك	١٧٥
٩ — حياتي (قصة رجل من الريف)	لانطون تشيخوف	١٢٥
١٠ — طريق التبغ	لارسكين كالدويل	٢٠٠
١١ — افول القمر	لجون شتاينبيك	١٥٠
١٢ — أرض المآسي	لارسكين كالدويل	٢٠٠

دار العلم للملايين